الصباح الإسلامية
AL-SABAH
www.alsabahpress.com Alsabah Media
No. 4625 | الأربعاء | غرة المحرم 1445 هـ | 19 يوليو 2023 م | السنة السادسة عشرة

هجرة النبي وصاحبه الصديق.. رحلة مصاعب تكللت بانتصار الإسلام

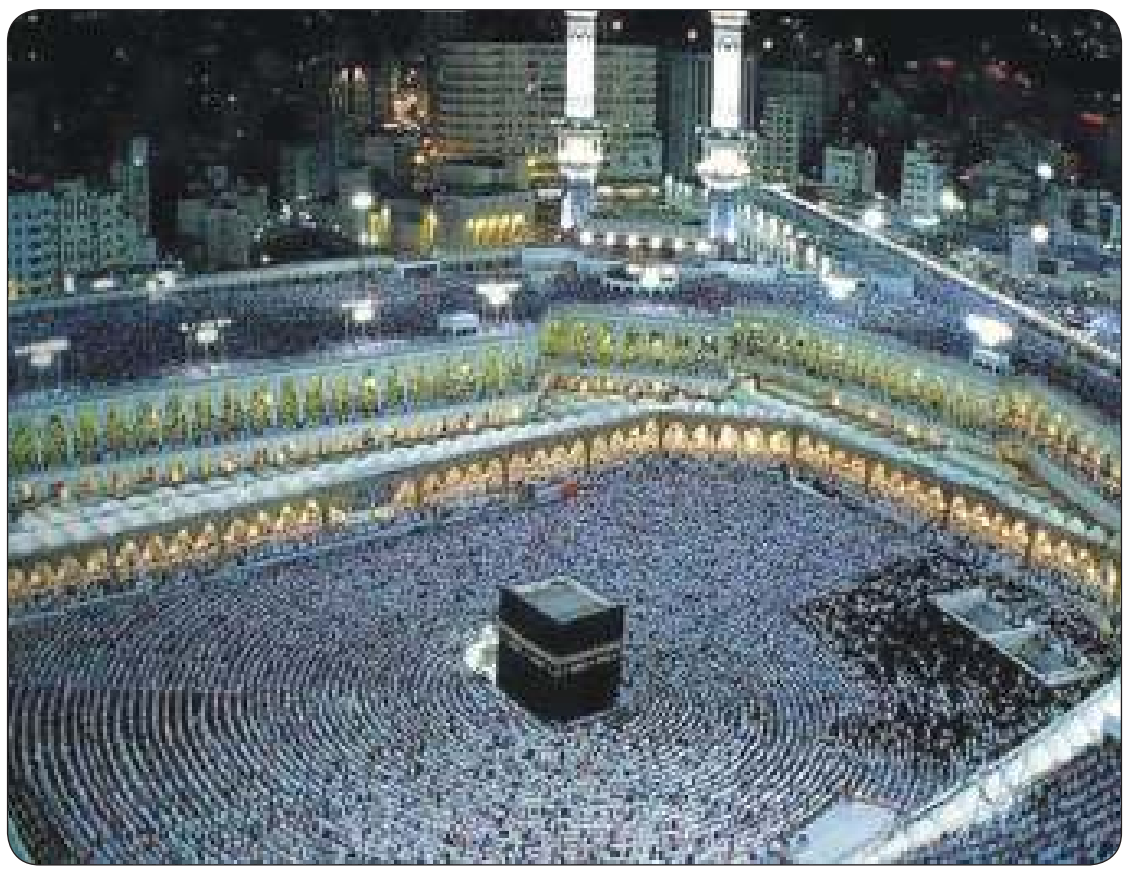

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرّغم من أساليبها الشنيعة، والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديّة، وكيانهم الاجتماعيّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدّعوة، وقد تحدّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » [الأنفال: 30]

فقال: تشاورت قريش ليلة بمكّة، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (2/124 – 126) وابن سعد (1/227 – 228) والبيهقي في دلائل النبوة (2/466 – 468) وأبو نعيم في دلائله (63 – 64) والطبري في تاريخه (2/372) والهيثمي في مجمع الزوائد (6/52 – 53)]، يريدون النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع اللهُ نبيّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النّبيّ صلى الله عليه وسلم – تلك اللّيلة [أحمد (1/348) وعبد الرزاق في المصنف (5/389) والطبري في تاريخه (2/372) ومجمع الزوائد (6/52 – 53)] . وخرج النّبيُّ صلى الله عليه وسلم، فلمّا أصبحوا؛ ثاروا إليه، فلمّا رأوا عليّاً؛ ردّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصّوا أثره، فلمّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً.

قال سيّد قطب – رحمه الله – في تفسيره للآيات الّتي تتحدّث عن مكر المشركين بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنّه التّذكير بما كان في مكّة قبل تغيُّر الحال، وتبدل الموقف، وإنّه ليوحي بالثّقة واليقين في المستقبل، كما ينبّه إلى تدبير قدر الله، وحكمته فيما يقضي به ويأمر. ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أوّل مرّة يعرفون الحالين معرفة الذي عاش، ورأى، وذاق، وكأنّ يكفي أن يذكّروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف، وقلق في مواجهة الحاضر الواقع، وما فيه من أمن، وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين، ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرّد النّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحبسوه حتّى يموت؛ أو ليقتلوه، ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكّة منفيّاً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كلّه، ثمّ اختاروا قتله، على أنّ يتولّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرّق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعا، فيرضوا بالدّية، وينتهي الأمر. إنّها صورة «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة؛ فأين هؤلاء البشَر الضّعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبّار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكلّ شيءٍ محيط؟!.

التّرتيب النّبويّ للهجرة

عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النّهار، إمّا بُكرة، وإمّا عشيّة، حتّى إذا كان اليوم الّذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، والخروج من مكّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلمّا رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السّاعة إلا لأمر حَدَث.

قالت: فلمّا دخل؛ تأخّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخرِجْ عنّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنّما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي، وأمّي! فقال: «إنّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُحبة يا رسول الله! قال: «الصُحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطّ قبل ذلك اليوم: أنّ أحداً يبكي من الفرح، حتّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثمّ قال: يا نبيّ الله! إنّ هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أريقط – رجلاً من بني الدّيل بن بكر، وكانت أمّه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً – يدلّهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل، وفيه: «. . . قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر، في نحر الظّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنّعاً؛ في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمّي! والله ما جاء به في هذه السّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «أخْرِجْ من عندك»، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك. قال: «فإنّي قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصُحبة بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم»، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بالثّمن»، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهّزناهما أحثّ الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع)، وصنعنا لهم سُفرةً في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سمّيت ذات النطاقين، ثمّ لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد اللّه بن أبي بكر رضي الله عنهما، وهوَ غلامٌ، شابٌّ، ثقف، لقنٌ، فيُدلجُ من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكّة كبَائت، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وَعَاهُ، حتّى يَأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظّلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعة من العشاء، فيبتان في رِسْل – وهو لَبَنُ منْحتهما ورَضيفهما – حتىَ ينعق بها عامر بن فُهيرة بغَلسيفْعل ذَلك في كَل ليلة من تلك اللّيالي الثّلاث، واستأجر رسولُ الله صلى اللهَ عليهِ وسلم، وأبو بكر رجلاً من بني الدّيل، وهو من بني عبد بن عديّ – هادياً خرّيتاً – والخرّيت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في ال العَاص بن وائل السّهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناهُ، فدفعا إليه راحلتيهما، ووَاعداه غار ثور بعد ثلاث ليالَ براحلتيهما صُبْحَ ثلاث، وانطلق معهما عامرُ بن فهيرة، والدّليل، فأخذ بهم طريق السّواحل».

خروج الرّسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى الغار

لم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالب، وأبو بكر الصّدّيق، وآل أبي بكر. أمّا عليٌّ رضي الله عنه، فإنّ رسول الله صَلى الله عليه وسَلم أمره أن يتخلّف؛ حتّى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع؛ الّتي كانت عنده للنّاس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بمكّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه، وأمانته، وكان المِيعاد بين الرّسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة، لأبي بكر في ظَهْر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء؛ حتّى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرّحلة المباركة، وقد اتّعدا مع اللّيل على أن يلقاهما عبد الله بنُ أريقط، في غار ثور، بعد ثلاث ليال.

دعاء النّبيّ صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكّة

وقد دعا النّبي صلى الله عليه وسلم عند خروجهِ من مكّة إلى المدينة قائلاً: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً! اللّهمّ أعنّي على هول الدّنيا، وبوائق الدّهر، ومصائب اللّيالي والأيام! اللّهمّ اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذلّلني، وعلى خلقي فقوّمني، وإليك رب فحبّبني، وإلى النّاس فلا تكلني! ربّ المستضعفين! وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الّذي أشرقت له السّموات، والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأوّلين، والآخرين أن تحلّ عليّ غضبك، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك، وَفُجَاءَة نقمتك، وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك، لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت، لا حول، ولا قوّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (9234)]. ووقف الرّسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه بالحزْوَرَة في سوق مكّة، وقال: «والله إنّك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أُخْرِجتُ منك ما خَرَجْتُ» .

ثمّ انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه، وقد حفظهما الله من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ المشركين اقتصّوا أثر رسول اللهَ صلى الله عليه وسلم، فلمّا بلغوا الجبل – جبل ثور – اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت؛ فقالوا: لو دخل هاهنا، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» وهذه من جنود الله – عزّ وجل – التي يخذل بها الباطل، وينصر بها الحق؛ لأنّ جنود الله – جلّت قدرته – أعمّ من أن تكون ماديّة، أو معنوية، وإذا كانت ماديّة؛ فإنّ خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب. قال الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ » [المدثر: 31] . أي: وما يعلم جنود ربك لكثرتها إلاّ هو، فجنود الله غير متناهية، لأنّ مقدوراته غير متناهية، كما أنّه لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات، والوقوف على حقائقها، وصفاتها، ولو إجمالا، فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كمّ، وكيْف، ونسبة.

عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله

بالرّغم من كلّ الأسباب الّتي اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلمَ، فإنّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنما كان كامل الثّقة في الله، عظيم الرّجاء في نصره، وتأييده، دائم الدُّعاء بالصّيغة الّتي علّمه الله إيّاها. قال تعالى: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» [الإسراء: 80]. وفي هذه الآية الكريمة، «دعاء يعلّمه الله لنبيّه ليدعوه به، ولتتعلّم أمّته كيف تدعو الله، وكيف تتّجهَ إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل، وصدق المُخْرَج، كناية عن صدق الرّحلة كلها؛ بدئها، وختامها، أوّلها، وآخرها، وما بين الأوّل والآخر، وللصّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثّبات، والإطمئنان والنّظافة، والإخلاص. «وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا»، وهيبة أستعلي بهما على سلطان الأرض، وقوّة المشركين، وكلمة تصوّر «مِنْ لَدُنْكَ»، والاتّصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرَة، واللّجوء إلى حماه.

وصاحب الدّعوة لا يمكن أن يستمدّ السُّلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله، ولا يمكن أن يستظلّ بحاكم، أو ذي جاه، فينصره، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله، والدّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان، والجاه، فيصبحون لها جنداً، وخدماً، فيفلحون، ولكنّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان، وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السُّلطان، والجاه». وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأيَ العين؛ طمأن الرّسول صلى الله عليه وسلم الصّدّيق بمعيّة الله لهما، فعن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه قال: قلت للنّبيّ صلى الله عليهِ وسَلم وأنا في الغار: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه؛ لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم : «ما ظنّك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثهما؟»، وفي روايةٍ: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما».

وسجّل الحقُّ – عزّ وجلّ – ذلك في قوله تعالى: «إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [التوبة: 40] .

وقد تحدّث الطّبريُّ في تفسيره عن هذه الآية الكريمة، فقال: هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم : أنه المتكفل بنصر رسوله على أعداء دينه، وإظهاره عليهم دونهم؛ أعانوه، أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به، وهو من العدد في قلّة، والعدوُّ في كثرة، فكيف به؛ وهو من العدد في كثرة؛ والعدوّ في قلّة؟! يقول لهم جلّ ثناؤه: إلا تنفروا – أيُّها المؤمنون – مع رسولي؛ إذا استنصركم فتنصروه؛ فالله ناصره، بالله من قريش، من وطنه، وداره يقول: أخرجوه وهو أحد «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ»، وإنما عنى جلّ ثناؤه بقوله: «ثَانِيَ اثْنَيْنِ» الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر رضي الله عنه؛ لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله، واختفيا في الغار، وقوله: (إذ هما في الغار) يقول: إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه في الغار«إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» يقول: إذ يقول الرّسول لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وَذَلك: أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحزن؛ لأنّ الله معنا، والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا، ولن يصلوا إلينا، يقول جلّ ثناؤه: فقد نصره على عدوّه وهو بهذه الحال من الخوف، وقلّة العدد، فكيف يخذله، ويحوجه إليكم وقد كثر الله من أنصاره وعدد جنوده. .

وقد تحدّث الدكتور عبد الكريم زيدان، عن المعيّة في هذه الآية الكريمة، فقال: «وهذه المعيّة الرّبانية المستفادة من قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»، أعلى من معيّته للمتّقين، والمحسنين في قولهَ تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [النحل: 128] ؛ لأنّ المعيّة هنا هي لذات الرّسولَ، وذات صاحبه، غير مقيّدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التّقوى، والإحسان؛ بل هي خاصّة برسوله، وصاحبه، مكفولة هذه المعيّة بالتأييد بالآيات، وخوارق العادات».

وتحدّث صاحب الظّلال عن هذه الآيات، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمّد ذرعاً، كما تضيق القوّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقّ، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فائتمرت به، وقرّرت أن تتخلّص منه، فأطلعه الله على ما ائتمرت به، وأوحى إليه بالخروج وحيداً، إلا من صاحبه الصّدّيق، لا جيش، ولا عدّة، وأعداؤه كُثُرٌ، وقوّتهم إلى قوته ظاهرَةٌ، ثمّ ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها من جانب، والرّسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه منها مجرّدٌ؟ كان النّصر المؤزّر من عند الله بجنود لم يرها النّاس، وكانت الهزيمة للذين كفروا والذّلّ والصّغار، «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى»، وظلّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قويّة نافذة. ذلك مثلٌ على نصرة الله لرسوله، ولكلمته، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قوم آخرين؛ غير الّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليل!».

خيمة أم معبد في طريق الهجرة

وبعد ثلاث ليال من دخول النّبيّ صلى الله عليه وسلم في الغار خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قلنا: إنّ رسول الله وأبا بكر، قد استأجرا رجلاً من بني الدّيل، يُسمّى عبد الله ابن أريقط، وكان مشركاً، وقد أمناهُ، فدَفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالَ براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدّد، وسلك بهما طريقاً غير معهودة؛ ليخفي أمرهما عمّن يلحق بهم من كفار قريش.

وفي الطريق إلى المدينة، مرّ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم بأمّ مَعْبَد في قُدَيْد حيث مساكن خزاعة، وهي أخت حُنَيْس بنَ خالد الخزاعيّ؛ الّذي روى قصّتها، وهي قصّةٌ تناقلها الرُّواة، وأصحاب السّير، وقال عنها ابن كثير: «وقصّتها مشهورة مرويّة من طُرق يشدُّ بعضها بعضاً»، فعن خالد بن حُنَيْس الخزاعيّ رضَي الله عنه، صاحب رسول الله